الحب والمحبة وجهان لأبعاد ومعاني الشفافية في الكيان الإنساني

" الرجل هو لا وعي المرأة. والمرأة لا وعي الرجل. فحين يلامس نبض أحدهما الآخر تومض الحياة في مساحات لا وعيهما. فيصبح كل منهما شاطئ الأمان للآخر إن أدرك أهمية الآخر في حياته ووجوده." قرأت هذه العبارة على الغلاف الخلفي لكتاب الايزوتيريك الأخير "تعرف إلى الحب" بقلم د. جوزيف مجدلاني (ج.ب.م). كان الكتاب في إحدى واجهات مكتبة مررت بها بعد انتهاء دوام عملي. والغريب أنني وجدته في جهة قسم العلوم الباطنية والأبعاد الخفية! كيف وصل كتاب عن الحب إلى هذا القسم من المكتبة وما علاقته به؟! تصفحت الكتاب بسرعة ثم أخذته معي إلى المنزل من دون أن أدرك أنه سيأخذني بدوره إلى أبعاد مجهولة في أصول الحب السليم وأقاصي طموحاته.

رحلة في أبعاد أصول الحب

بقلم: شارلوت ملحم
charlotte.melhem@gmail.com
www.esoteric-lebanon.org

جلست في ركن من المنزل أقرأ الكتاب فيما أنتظر عودة زوجي من العمل. وبدأت رياح التساؤلات تدفعني لأبحر بعيدا بين عباب صفحاته.. ومع كل تساؤل كانت أمواج الإجابات في صفحاته تلاطم مركب وعيي، تارة ترتفع به إلى مراقي المعادلات الإنسانية، وطورا تغوص به في صميم مفهوم الحب المغيب كليا عن الأذهان!

مع أن تساؤلي الأول كان بديهيا، إلا أنني شعرت بحاجة داخلية لأطرح السؤال: ما هو الحب؟ أهو إحساس، شعور، أو فكرة؟

بين الحب والمحبة

وأجابني الكتاب: "الحب تعرفه النفس البشرية ولا تعرفه، تجده ولا تجده... العاطفة واحة الفكر، لكنها ليست الحب. الفكر قوة صفاء العاطفة، لكنه ليس الحب.. تسليط قوة صفاء الفكر على واحة العاطفة هو الحب!".

تمعنت في ذلك التعريف الفريد والأول من نوعه، وأطلقت العنان لمخيلتي لتقارن بين تلك المفاهيم وتربطها بخبرات حياتي. لكن تساؤلا جديدا قاطع رحلتها: لماذا تتناول علوم باطن الإنسان-الإيزوتيريك موضوع الحب على الملأ في هذا الكتاب وتعيره كل الأهمية؟ ألا تتمحور علوم باطن الإنسان عادة حول موضوع المحبة، التي تعتبر أشمل من الحب؟ وأجاب الكتاب عن تساؤلي: "الحب والمحبة وجهان لأبعاد ومعاني الشفافية في الكيان الإنساني، حيث الحب يمثل شفافية المادة، والمحبة "شفافية" اللامادة. المحبة هي الأم، والحب وليدها، هي موجدة الحب وراعيته. فإذا تبصرنا في كلمة محبة نراها تحتضن كلمة حب بين دفتيها، كما تحتضن الأم طفلها.. ما يدل على أن هدف الحب في نهاية المطاف هو بلوغ المحبة."

ومع ذلك، تفكرت أن الفلسفات الإنسانية والمعتقدات الروحية، إلى جانب مناهج التربية تركز على مفهوم المحبة وقلما تتناول موضوع الحب... حتى أنني لا أزال أتذكر أن المثاليات، بما فيها مفهوم المحبة كانت سائدة على نصائح والدي، فيما كانا يتجنبان التطرق إلى موضوع الحب أمامي قبل بلوغ سن الثامنة عشرة!

بين الحب والجنس

"هناك فارق بين عمل الجنس (المحصور في الجسد) وفعل الحب (الذي يرتفع إلى الذات الإنسانية)، ما يتضح لنا أن الحب حالة وعي وحقيقة نور.. فيتبدى الحب والوعي صنوان.. من يبتعد عن الحب أو يهين عاطفة الحب بالجنس المبتذل والعلاقات الرخيصة يكون قد أهان الوعي الإنساني لديه!"

أغلقت الكتاب ووضعته على المنضدة، ورحت استحضر من ذاكرتي كيف ومتى بدأت لواعج الحب الأولى في حياتي... وهل للحب بداية؟ فنادتني من المنضدة عبارة على الغلاف الخلفي للكتاب:

"يقظة نبض النفس هي بداية الحب. وفعل النبض فيها هو امتداده وتوسعه... فأن تتحسس الحب فيك، يعني أنك تحب... وألا تتحسسه يعني أن تظل هائماً بلا محور ولا هدف، بلا حب. لأن الحب هو الدرب الوحيد إلى صميم المحور فيك، حيث في الصميم يلتقي المحور بالهدف."

وسرعان ما أيقنت أنني كنت فعلاً هائمة في فراغ ومعاناة قبل أن أختبر الحب، أترقب لقاء فارس الأحلام عند بزوغ كل فجر، وأعاتبه قبل أن أعرفه عند كل مغيب. كانت أيامي تخلو من التفاعل الداخلي، وتسودها الرتابة وثقل الانتظار. لكن حتى بعد التقائنا، وخلال رومانسية الخطوبة التي واكبت زواجنا، ولد نوع آخر من المعاناة!... ما جعلني أتساءل أحياناً إن كان الوصف المثالي للحب في الكتب والروايات ينطبق على واقعي وواقع كل فتاة تعاني في الحب! ماذا عن معاناة الحب هذه؟ هل أجد إجابات عنها في هذا الكتاب؟

عيد العشاق

وفتحت الكتاب من جديد وكأني أفتح هدية عيد العشاق التي قدمتها لنفسي، بعد أن نسيها زوجي صباح اليوم، أو ربما تناساها مع مر الزمن... لا شك في أن أحد أسباب هذه المعاناة أن أحدنا يفرط بالابتعاد عن الواقع الحياتي فيما الآخر يفرط بالارتباط به! وقلبت الصفحات، بحثاً عن تفسير للمعاناة، إلى أن أنارت ذهني الإجابة في صفحة منه..

"إن تفاعلات الحب في النفس البشرية تتحقق مرة كلذة جسد.. ومرة كدفء مشاعر.. ومرة كتواصل فكر. هذا التواصل يتسم باتحاد اللذة والدفء في عمق التجربة الحياتية على أنواعها.. وإلى ذلك الحين يبقى الابتعاد في ما بين هذه الثلاثية، بمثابة "مسافات" تسكنها المعاناة، والمعاناة لازمة الحب. فهي معاناة اللاءمة الداخلية في ما بين أجسام (أجهزة وعي) النفس البشرية. هي معاناة التصدع والتقطع في تفاعلاتها اللذين ينعكسان خارجاً على شكل خلاف يتجاوز الاختلاف مع الحبيب. معاناة هي في حقيقتها انعكاس خارجي لحقيقة ما تعانيه النفس وتتململ منه جراء انعدام الراحة الداخلية والانسجام فيما بين مكوناتها وما بين الفراغات التي تتخللها. إن السلبية التي تباعد بين مكونات النفس الذبذبية، بل تغشي نورانيتها، هي أساس معاناة النفس في أوجه وجودها وتجاربها... وبالتحديد في الحب."

التفاعل في تجربة الحب

حقاً، إن الكتب هدايا المثقفين، تستطيع أن تفتحها مراراً ومراراً، والأروع من ذلك أن القارئ يستطيع في زمن الكتاب أن يختلس نظرة إلى الأمام أو يعود أدراجه إلى الوراء بمجرد قلب الصفحات... عدت بضعة صفحات إلى الوراء لأقرأ من جديد عن موضوع اللحمة والتواصل بين الأبعاد الثلاثة: جسد، مشاعر وفكر في الإنسان... وكان موضوع المعاناة هذا الذي أتخبط فيه حياتياً، استحثني لأفهم بعمق ما سبق أن أهملته في قراءة الصفحات السابقة:

"كلية الحب هي كلية مقدرات نفسية، فكرية، مشاعرية، وصحية- جسدية تندمج كحال تفاعل جراء الاختبار لتصب في المحور- العقل الذي يجسدها شرارة نور تقدح داخل المحبة... هذا ما يدل على أن تجربة الحب تهدف إلى تفعيل كلية هذه المقدرات في الإنسان بحيث تحقق أعلى مستوى من التواصل والتفاعل بين أبعاد عوالم النفس البشرية.

الحب تعرفه النفس البشرية ولا تعرفه، تجده ولا تجده... العاطفة واحة الفكر، لكنها ليست الحب

هناك فارق بين عمل الجنس "المحصور في الجسد" وفعل الحب "الذي يرتفع إلى الذات الإنسانية"

انطلاقاً من الأرض. وفي حالة تفاعلية (ذوبان وانصهار) تتوحد فيها "شفافيات" هذه العوالم في شفافية واحدة جديدة هي شفافية الحب!..."

"الحب هدف شامل يدمج أبعاد عوالم الشكل في بعضها انطلاقاً من بعد المادة - الأرض. في حين أن المحبة هي هدف يعزز بإرادة الارتقاء نحو الحكمة الروحية - مسيرة الوعي على صعيد الروح - في صميم النور- الجوهر.. فتحقيق الحب كهدف أو عنوان للوعي الأرضي يعني أن يتألق الجسد في التعبير عن تكامل تفاعل المشاعر والفكر، وبالتالي تتألق الشخصية البشرية التي تعبّر عن إنسانيتها الكاملة في قطبي الحياة - المرأة والرجل."

حين يهيمن الحب على الزمن

وفي صفحة أخرى قرأت: "النفس التي لا تستمتع بالحياة هي النفس القلقة والبعيدة عن لذائذ الحب... كونه باقة تجمع صفات الكيان وتصهرها في حال تفاعل مميز يجمع ما بين الخيال والرومانسية والإرادة والمعرفة مروراً بالجسد والمشاعر والفكر، فيغتني الحب بها ويتوسع جراء تفاعلها، فيعي المرء الحقيقة أن الزمن يقع ضمن دائرة الحب، وليس الحب ما يقع ضمن دائرة الزمن."

شعرت بوقع تلك العبارات عميقاً في دوائر وعيي، فأغلقت الكتاب من جديد ووضعته جانباً، لأستلقي على السرير وأتمعن في ما قرأت.. وبعد انقضاء بضع دقائق استسلمت فيها للنوم، ولأحلام غريبة وطويلة.. شاهدت نفسي فيها وسط صخب شديد، أتوق للقاء زوجي ينقلني إلى واحة السلام من خضم الضجيج الداخلي..

ثم سكن الصخب وتلاشى الضجيج، وأبصرت نوراً يتمدد داخل كياني، واستيقظت فجأة من الحلم، لأرى زوجي بقربي، حاملاً بين راحتيه باقة ورد أحمر! كان يحدق في عيني، وكأنه ينظر إلى أبعاد شاسعة في أفق بعيد.. لامست يده يدي، وارتسمت على شفتيه بسمة حب وهو يقول: زوجتي وحبيبتي، كل عيد ونحن معاً في دائرة الحب.. وجدت كتابك هذا على المنضدة ووجدت فيه هذه العبارات، أهديك إياها مع باقة الورد:

"حبيبة عمري، أنا أيضاً غارق في الصخب، مرهق ومثقل بأعباء الحياة، أترقب لقاءنا بلهفة تخترق أعماقي كلمسة سحر.. أنت أيضاً واحتي ودليلي ودربي إلى الحياة الهانئة خارج هدير الواقع.

نحن دائرة وجود
محورها أنت وأنا...
ومحيطها تفاعلنا.
هات يدك ليكون مسكنها كياني..
وخذي يدي ليكون مسكنها قلبك.
معاً نسير في مسيرة الوعي، مسيرة الكفاح في الحياة."

"وأهديك مع باقة الورد أيضاً معنى اسمك "شارلوت" الذي وجدته أخيراً بعد طول بحث. ثم قص ورقة زهرية اللون رقيقة شفافة، وشرع يتلو عليها بعذوبة الحب: "شارلوت الحبيبة، فهذا معنى اسمك "الحبيبة". كلمة شارلوت مؤنث شارلز بالإنجليزية، وشارلي بالفرنسية، وكارلوس بالأسبانية (ومؤنثها كارلا) وتعني بالعربية: المعشوقة، الخليلة، الحبيبة.. ومن غيرك يضم كل صفات المرأة؟!"